

هارون الرشيد

أبو جعفر هارون بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي (149 هـ - 193 هـ)، الخليفة العباسي الخامس. ولد في مدينة الري عام 149 هـ (766) وتوفي في مدينة طوس (مشهد اليوم) عام 193 هـ (809). بويح بالخلافة ليلة الجمعة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي عام 170 هـ وكان عمره آنذاك 22 سنة. وأمه الخيزران بنت عطاء وهي أم ولد يمانية جرشية.

يعتبر هارون الرشيد من أشهر الخلفاء العباسيين، وأكثرهم ذكراً حتى في المصادر الأجنبية كالحوليات الألمانية في عهد الإمبراطور شارلمان التي ذكرته باسم (ارون)، والحوليات اليابانية والصينية التي ذكرته باسم (الون)، أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه لدرجة أن أخباره قد امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ولا سيما كتاب "ألف ليلة وليلة" التي صورتها بالخليفة المسرف في الترف والملذات، وأنه لا يعرف إلا اللهو وشرب الخمر ومراقبة الغانيات. والواقع أن هذا الخليفة كان من خيرة الخلفاء فقد كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وذكر أنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق بألف، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمان الدين، ويبغض الجدل والكلام، ويكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ. وقد تم فتح الكثير من البلدان في زمنه، واتسعت رقعة الإسلام واستتب الأمن وعم الرخاء وكثر الخير بما لا نظير له ثم إن هذا الخليفة كان حسن السيرة والسريرة.

كذلك كان يصور بصورة الخليفة الحذر الذي يبث عيونه وجواسيسه بين الناس ليعرف أمورهم وأحوالهم، بل كان أحياناً يطوف بنفسه متنكراً في الأسواق والمجالس ليعرف ما يقال فيها. والواقع هذه الصورة المتباينة للرشيد ما هي إلا انعكاس للعصر الذي عاش فيه بمحاسنه ومساوئه، وهو العصر العباسي الأول أو العصر الإسلامي الذهبي. وقد تميز عصره بالحضارة والعلوم والازدهار الثقافي والديني، وأسس المكتبة الأسطورية بيت الحكمة في بغداد، وبدأت بغداد خلال فترة حكمه بالازدهار كمركز للمعرفة والثقافة والتجارة.

حياته قبل الخلافة

هارون الرشيد هو ابن الخليفة محمد المهدي من زوجته الخيزران بنت عطاء التي كان لها نفوذ كبير في الدولة، ولد هارون عام 149 هـ (766م) في مدينة الري التي أصبحت جزءاً من إقليم الجبال في فترة الدولة العباسية. وكان والده والياً على المدينة. تربي الرشيد مع أولاد الأمراء والقادة في الدولة العباسية ومع إخوته بالرضاعة، الفضل وجعفر أولاد يحيى البرمكي الذي صار له مكانة عظيمة بالدولة العباسية، وفي عام 151 هـ وبعد وفاة جعفر الابن الأكبر للخليفة أبو جعفر المنصور عادت أسر المهدي إلى بغداد، وقد أصبح المهدي ولياً للعهد. وعاش الرشيد طفولة هادئة ومستقرة في ظل رعاية والده وجدده، وكان ممن تولى تربيته وتعليمه عالم النحو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي المعروف (الكسائي)، الذي ظل معه حتى وفاته ثم صار أيضاً معلماً لابن الرشيد محمد الأمين. كما تولى تربيته وتعليمه المعلم المفضل الضبي الذي صنف للمهدي كتاب "المفضليات".

في عام 158 هـ توفي أبو جعفر المنصور وأصبح المهدي في منصب الخلافة ودفع بابنه هارون للتدريب على الفروسية والرماية وفنون القتال، وقال محمد بن علي الخراساني: "الرشيد أول خليفة لعب بالصوّالجة والكرة، ورمى النشاب في البرجاس، وأول خليفة لعب بالشطرنج من بني العباس".

عندما أصبح هارون شاباً يافعاً، عينه والده قائداً في الجيش الذي يضم العديد من قادة الكبار وأمراء الدولة، وكان عمر هارون وقتها لا يتجاوز الخمس عشر عاماً، وخرج الجيش عام 163 هـ إلى أراضي الروم وتوغل فيها وأظهر هارون براعة في قيادته وحاصر قلعة رومية اسمها "سمالوا" ثمانية وثلاثين يوماً حتى انتهى الأمر بفتحها، وعاد الرشيد بالجيش سالمًا محملاً بالغنائم، فاستقبله أهل بغداد وكافاه المهدي بتوليته بلاد أذربيجان وأرمينية.

وفي عام 165 هـ تزوج الرشيد ابنة عمه زبيدة بنت جعفر، وبعد الزواج بفترة قصيرة، أرسله والده المهدي لقيادة جيش آخر لغزو الروم، مكون من 95,793 رجل. وصل جنود الرشيد خليج البحر المطل على القسطنطينية، وكانت حاكمتهم يومئذ

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

أيرين زوجة أليون الملقبة (أغسطه)، وهي وصية العرش لابنها قنسطنطين البالغ من العمر تسع سنوات، فطلبت الصلح من الرشيد، بعد أن رأت القتل في الروم، على أن تدفع له سبعين ألف دينار كل سنة، فقبل ذلك منها وأرسلت معه الهدايا لوالده الخليفة المهدي وتعاهدت مع الرشيد على هدنة ثلاث سنين. فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة:

**أطفت بقسطنطينية الروم مسندا إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتهما والحرب تغلي قدورها**

عاد هارون من تلك الغزوة إلى بغداد وقد فرح المهدي بانتصار ابنه وأطلق عليه لقب الرشيد، وأخذ له البيعة كولي للعهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادي، فأصبح هارون الرشيد ولي العهد الثاني

ولاية العهد ومبايعة أخيه الهادي

كانت الخيزران تحب ابنها هارون، وترغب في تقديمه على أخيه الهادي في ولاية العهد لما رأته فيه من بطولة وذكاء وحكمة، بالرغم من كون الاثنين ولديها، ولأن الخليفة المهدي كان يحب الخيزران حباً كبيراً، فعزم على تنفيذ رغبتها ونقل ولاية العهد من ولده موسى الهادي إلى هارون الرشيد، فأرسل في طلب ولده الهادي للحضور لديه وكان مقيماً في جرجان. لكن الهادي علم أن أباه يريد خلع من ولاية العهد، فلم يمتثل لأمر أبيه وظل مقيماً في جرجان، فغضب المهدي منه وجهاز جيشاً وتوجه إلى جرجان ومعه ابنه هارون الرشيد، لكنه توفي في ماسبدان. فصلى عليه هارون ودفنه. وأرسل هارون إلى أخيه الهادي بخاتم الخلافة وهناه بالخلافة، وأخذ البيعة من الأمراء وقادة الجيش وعامة الشعب. وتسلم الهادي أمر الخلافة وتوجه إلى بغداد لممارسة مهام عمله وأخذ البيعة بنفسه وكان ذلك في عام 168 هـ. ولم تستمر مدة خلافته سوى سنة وثلاثة أشهر.

محاولة الهادي خلع هارون من ولاية العهد

لم يناعز الرشيد أخاه الهادي من توليه الخلافة، ولم يدخل معه في صراع، لأنه يعلم أن الصراع على السلطة والحكم معول هدم للخلافة الإسلامية التي سعى العباسيون إليها، إلا أن أخاه الهادي أراد عزل الرشيد عن ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر من بعده، وهذا يتطلب تنازل الرشيد عن ولاية العهد ومبايعة الولي الجديد.

أصبح الهادي ينتقد تصرفات أخيه الرشيد في مجالسه ويبيد عدم رضاه عنه، بل وطلب منه أكثر من مرة أن يتنازل عن ولاية العهد، فقد ذكر الطبري في تاريخه أن الهادي بعث إلى يحيى البرمكي، وكان أشد المناصرين للرشيد ليلاً ولكن يحيى يشك أن الهادي سوف يقتله لدرجة أنه ودع أهله، وتحنط وجدد ثيابه، فلما أدخل عليه، قال له الهادي: يا يحيى، ما لي ولك! قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته. قال: فلم تدخل بيني وبين أخي وتفسده علي! قال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما! إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، ففقت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك، قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده. فسكن غضب الهادي.

وسبب هذا الحوار أن الهادي قد علم أن يحيى البرمكي كان يشجع الرشيد على عدم التنازل عن ولاية العهد، ولذلك تكرر تحذير الهادي له أكثر من مرة، إلا أن يحيى البرمكي ظل معاوناً للرشيد يشجعه على عدم التنازل عن ولاية العهد بعد أن رأى أن الرشيد لا يريد أن يدخل في صراع على السلطة والخلافة مع أخيه، وانتهى الأمر بأن أصدر الهادي أمراً باعتقال يحيى البرمكي، فظل في السجن حتى وفاة الهادي وأخرجته الخيزران ليكون الوزير المقرب من الرشيد.

توليه الخلافة

بويع الرشيد بالخلافة ليلة الجمعة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي (14 ربيع الأول 170 هـ / 14 سبتمبر 786م) وكان عمر الرشيد وقتها اثنتين وعشرين سنة، وكانت الدولة العباسية حين آلت خلافتها إليه مترامية الأطراف متباعدة، تمتد من وسط آسيا حتى المحيط الأطلسي، معرضة لظهور الفتن والثورات، تحتاج إلى قيادة حكيمة وحاسمة يفرض سلطانها الأمن والسلام، وتنهض سياستها بالبلاد، وكان الرشيد أهلاً لهذه المهمة الصعبة في وقت كانت فيه وسائل الاتصال صعبة، ومتابعة الأمور شاقة.

بتولي الرشيد الحكم، بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ الدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمّ الرخاء ربوع الدولة الإسلامية، ولقد أمسك هارون الرشيد بزمام هذه الدولة وهو في

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

نحو الثانية والعشرين من عمره، فأخذ بيدها إلى ما أبهر الناس من مجدها وقوتها وازدهار حضارتها. اتخذ الرشيد يحيى البرمكي وزيره الأول، وأبناؤه من خلفه، وفوض إليه أمر الرعية. وفي ذلك قال إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمين أمين الله هارون ذي الندي فهارون واليها ويحيى وزيرها

أمر هارون يحيى بأن يشاور والدته الخيزران بكل شيء، فكانت هي المشاورة في الأمور كلها، فتبرم وتحل وتمضي وتحكم. ورزق الرشيد في يوم خلافته بابنه محمد الأمين من زوجته زبيدة.

من أعماله :

- أصدر الرشيد عند توليه الخلافة عفواً عاماً عن كل من كان هارباً أو مستخفياً عدا بعض الزنادقة. كما استعمل مدينة الرقة عاصمة رديفة.

- أنشأ ما يعرف ببيت الحكمة في بغداد وزودها بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض. وكانت تضم غرماً عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخصّصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين.

- كما تمت في عهده أول ترجمة إلى العربية لأشهر كتاب علمي عرف في التاريخ وهو "كتاب الأصول (الأركان) في الهندسة والعدد لإقليدس.

- تطورت العلوم خصوصاً الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية. أنشئ في عهده أول مصنع للورق ببغداد سنة 795 م، وصار سوق الوراقين لاحقاً الذي يضم مئات الحوانيت التي تباع السلع الورقية الفاخرة مفخرة عاصمة العباسيين، وكان ورق بغداد يقدر تقديراً عالياً في المنطقة، حتى أن بعض المصادر البيزنطية تسمي الورق بصحف بغداد (Bagdatixon) في ربط مباشر بينه وبين مدينة بغداد.

- اهتم هارون الرشيد بالإصلاحات الداخلية، فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة، وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد.

- اعتنى الرشيد أيضاً بالزراعة ومؤسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة، وحفرت الترغ والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديواناً خاصاً للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية.

- من أعماله أيضاً تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقعة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقراً صيفياً لحكمه.

- أنشأ هارون الرشيد أكبر مستشفى في عصره، سماها باسمه "مستشفى الرشيد" في بغداد، ضمت في كادرها أمهر الأطباء، وتولى إدارتها كل من يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع، وكانت أشهر مستشفى في العالم القديم.

بغداد الرشيد :

غدت بغداد قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقراء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأي والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. كما جذبت المدينة الأطباء والمهندسين وسائر الصانع. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقهاء والعلم، حتى ذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق ذكره، وأرسلت بلاد الهند والصين وأوروبا رسلها إلى بلاطه تخطب وده، وتطلب صداقته، ويقول عبد الحي شعبان أن جل المؤرخين العالميين يعدون "بغداد في عهد الرشيد العصر الذهبي للحضارة الإسلامية العربية".

تصديه للفتن والثورات الداخلية :

إخماد ثورات الخوارج :

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

ظهرت طائفة الخوارج أثناء القتال الذي جرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، واستمر خروج هذه الطائفة على خلفاء بني أمية وبني العباس، لكنهم لم يكونوا بالخطورة التي كانوا عليها في العصور السابقة أثناء عصر الرشيد لذلك سهل على الرشيد القضاء على ثورتهم. كانت أول ثورة قام بها الخوارج قادها الفضل بن سعيد الحروري، لكنه قتل بعد فترة وجيزة من خروجه. ثم الصحح الخارجي بالجزيرة فتصدى له والي الجزيرة، لكنه انهزم أمامه وسار الصحح إلى الموصل فقاومه عسكر المدينة بباجرمي، لكنهم لم يتمكنوا منه وعاد إلى الجزيرة، فأرسل له الرشيد جيشاً لحقه بدورين فقتله وقضى على ثورته. في سنة 178 هـ خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجزيرة فدخل إلى أرمينية وحاصر مدينة خلاط عشرين يوماً، فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفاً. ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى أرض حلوان وأرض السواد، ثم عبر إلى غرب دجلة وقصد مدينة بلد واقضى أهلها منه بمائة ألف، وبقي في أرض الجزيرة؛ فأرسل إليه الرشيد قائده يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني الذي واجه الوليد وانتصر عليه وقضى على ثورته وانتهت الأزمة بمقتل الوليد. في عام 179 هـ خرج حمزة بن أترك السجستاني وعظم أمره عام 185 هـ عندما عاث فساداً في بادغيس بخراسان؛ فتصدى له عيسى بن علي بن عيسى وقتل الكثير من أعوانه وهرب حمزة إلى كابل. في سنة 191 هـ خرج ثروان بن سيف في سواد العراق فتصدى له طوق بن مالك مما أدى إلى فرار ثروان ولم يعد له من أثر يذكر.

إنهاء الفتن الداخلية :

ظهرت حركات استقلالية في دولة الخلافة، ترغب في الاستقلال وتصدى لها الرشيد وقضى عليها. في سنة 178 هـ قامت طائفة من قيس وقضاة على والي مصر فقاتلوه؛ فبعث لهم الرشيد هرثمة بن أعين فقاتلهم حتى أذعنوا له الطاعة وأدوا ما عليهم من الخراج، كذلك أحمد هرثمة فتنة قامت في أفريقيا بقيادة عبدويه الأنباري، وكان الفضل فيها يعود ليحيى البرمكي الذي كاتب عبدويه ووعد الأمان إن استجاب له فاستسلم عبدويه ووفى له يحيى بالأمان. ظهرت بعض الفتن في عام 176 هـ في الشام بين القبائل المضرية واليمانية، ودامت المعارك بينهما دهرًا طويلاً؛ فأرسل الرشيد جيشاً أنهى تلك الفتنة عام 177 هـ. في عام 185 هـ خرج أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي واحتل أبيورد وطوس ونيسابور ثم هزم في مرو، وخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان، وواجهه وقضى عليه عام 186 هـ.

الرشيد والبرامكة :

لما ولي هارون الرشيد الخلافة عرف ليحيى فضله عليه فاستوزره وزارة تفويض وهي الوزارة التي تستغني عن توقيع الخليفة، على عكس وزارة التنفيذ التي يباشرها الخليفة بنفسه. قام يحيى البرمكي بإدارة شؤون الدولة خير قيام وكان يساعده في ذلك ولداه الفضل وجعفر، أما الفضل فقد كان إداري ماهر، وكانت مهارته في إخماد ثورة يحيى بن عبد الله العلوي دون أن يسفك دمًا، كذلك كان كريمًا سخيًا، وقد ولاه الرشيد بلاد المشرق (خراسان وطبرستان وأرمينيا وبلاد ما وراء النهر)، قام الفضل هناك بأعمال إنشائية عظيمة الشأن من حفر القنوات وبناء المساجد والزوايا فحسنت سيرته في تلك البلاد. أما جعفر البرمكي وهو أصغر سنًا من الفضل، فقد ولاه الرشيد على الجزيرة والشام ومصر وأفريقية، وكان محبوبًا لدى الرشيد فاستبقاه في بغداد كي يكون قريبًا منه، وهذه الثقة الكبيرة التي أولاها الرشيد لجعفر البرمكي جعلت له نفوذًا في الدولة، وأعطى الرشيد البرامكة سلطات واسعة، وأفسح لهم المجال في الإشراف على جميع مرافق الحياة العامة: في الإدارة والعلوم والفنون.

نكبة البرامكة :

نكبة البرامكة مصطلح يشير إلى ما وقع للبرامكة على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد من قتل وتشريد، ومصادرة أموال، وقد كانوا وزراء الدولة وأصحاب الأمر والسلطان، وتعد هذه الحادثة أحد أبرز الأحداث السياسية المؤثرة في حكم هارون الرشيد، إذ أنها كانت حلقة في سلسلة نكبات طالت وزراء الدولة العباسية منذ قتل أبي مسلم الخراساني بتدبير الخليفة أبو جعفر المنصور، وقتل معظم المقربين من الخلفاء العباسيين، كأل سهل فيما بعد.

مكانة البرامكة :

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

لقد قام الخليفة هارون الرشيد بقتل البرامكة وإبادتهم بعد محاولتهم إبداء الفتنة بين الأخوين والتدخل في أحكام الخليفة هارون الرشيد في أمور الدولة من غير حق علما بأن الخليفة هارون الرشيد خليفة عادل ومنصف ولكن لم يرغبوا بهذا، كانت للبرامكة مكانة عالية في الدولة العباسية، فقد كان يحيى بن خالد البرمكي مسؤولاً عن تربية الرشيد، أما زوجته فقد أرضعت الخليفة هارون الرشيد، وقد قام يحيى بن خالد على أمر وزارة الرشيد وقد فوضه الرشيد بكل الأمور. أما الفضل بن يحيى بن خالد فقد كان أخ الرشيد من الرضاعة ووكله على تربية ابنه الأمين بن هارون الرشيد.

مؤشرات النكبة:

البيعة للأمين بولاية العهد لم يكد الأمين يبلغ الخامسة من عمره حتى اجتهدت أمه زبيدة وأخواله في أن تؤول إليه ولاية العهد، لتكون الخلافة له من بعد أبيه، وبالرغم من أن الرشيد كان يتوسم النجابة والرجاحة في "عبد الله المأمون"، ويقول: "إن فيه حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت"- فإنه قدّم محمداً بن زبيدة على أخيه الأكبر المأمون، مع علمه أن متبع هواه. ولعل رغبة أمراء البيت العباسي واجتماعهم على تولية الأمين كانت وراء نزول الرشيد على رأيهم، وتحقيق تلك الرغبة التي اجتمعوا عليها، وكانت حجتهم في ذلك أن الأمين هاشمي الأبوين، وأن ذلك لم يجتمع لغيره من خلفاء بني العباس، وكان يؤجج تلك الرغبة كرههم لـ"أل برمك" الذين استأثروا بالرشيد، ونالوا لديه حظوة ومكانة كبيرة.

استدعى الرشيد الأمراء والقادة ورجال الحاشية، وطلب الفقهاء ليشهدهم على قراره الخطير الذي عقد عليه العزم، وهو البيعة لابنه الثاني "محمد الأمين". وفي يوم الخميس (6 من شعبان 175 هـ = 8 من ديسمبر 791 م) عقد الرشيد مجلس البيعة، وأخذت لمحمد البيعة، ولقبه أبوه بـ"الأمين"، وولاه في الحال على بلاد الشام والعراق، وجعل ولايته تحت إدارة مربيه "الفضل بن يحيى البرمكي".

دور البرامكة في ولاية العهد للمأمون:

وبالرغم من عدم معارضة البرامكة في مسألة ولاية عهد الرشيد لابنه الأمين وسعيهم- في أول الأمر- إلى تزكية هذا الاختيار وتزيينه للرشيد ودفعهم له إلى إتمامه، فإنهم ما لبثوا أن شعروا بأنهم أساءوا الاختيار، وخصوصاً عندما أصبح الأمين شاباً يافعاً، وبعد ظهور نفوذ أمه "زبيدة"، التي أصبحت تنقم على البرامكة ما صاروا إليه من النفوذ والسلطان في بلاط الرشيد، عندئذ بدأ البرامكة يعيدون النظر في مسألة ولاية العهد، فاستخدموا نفوذهم، واستغلوا قربهم من الرشيد ومنزلتهم عنده في إيجاد منافس للأمين وأمّه زبيدة، ووجدوا بغيتهم في شخص "المأمون" الأخ الأكبر، خاصة أن أمه فارسية، واستطاع البرامكة أن يجعلوا الرشيد يعقد البيعة لولده "عبد الله المأمون"، على أن تكون ولاية العهد له من بعد أخيه الأمين، وذلك في سنة (182 هـ = 798 م)، بعد مضي نحو ثماني سنوات من بيعته الأولى للأمين، وأخذ "الرشيد" على ولديه "الأمين" و"المأمون" المواثيق المؤكدة، وأشهد عليهما، ثم وضع تلك البيعة في حافظة من الفضة، وعلقها في جوف الكعبة، بعد ذلك بأربعة أعوام في سنة (186 هـ = 802 م) عقد الرشيد ولاية العهد لابنه "القاسم" من بعد أخويه، ولقبه بـ"المؤمن".

نكبة البرامكة والطريق إلى العرش:

وإزاء تعاضم نفوذ البرامكة، واحتدام الصراع بين الفريقين، بدأت الأمور تتخذ منحىً جديداً، بعد أن نجحت الدسائس والوشايات في إيغار صدر الرشيد على البرامكة، وذلك بتصويره بمظهر العاجز أمام استبداد البرامكة بالأمر دونه، والمبالغة في إظهار ما بلغه هؤلاء من الجرأة على الخليفة، وتحكّمهم في أمور الدولة؛ حتى قرر الرشيد التخلص من البرامكة ووضع حد لنفوذهم.

ولم يكن ذلك بالأمر الهين أو المهمة السهلة؛ فقد تغلغل البرامكة في كل أمور الدولة، وصار لهم كثير من الأنصار والأعوان، فاتبع الرشيد سياسة الكتمان، واستخدم عنصر المفاجأة؛ حتى يلحق بهم الضربة القاضية، وفي ليلة السبت (أول صفر 187 هـ = 29 من يناير 803 م)، أمر رجاله بالقبض على البرامكة جميعاً، وأعلن ألا أمان لمن آوهم، وأخذ أموالهم وصار

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

دورهم وضياعهم. وفي ساعات قليلة انتهت أسطورة البرامكة وزالت دولتهم، وتبددت سطوة تلك الأسرة التي انتهت إليها مقاليد الحكم وأمور الخلافة لفترة طويلة من الزمان، تلك النهاية المأساوية التي اصطُح على تسميتها في التاريخ بـ"نكبة البرامكة". وكان لتلك النكبة أكبر الأثر في إثارة شجون القومية الفارسية، فعمدت إلى تشويه صورة الرشيد ووصفه بأبشع الصفات، وتصويره في صورة الحاكم الماجن المستهتر الذي لا همّ له إلا شرب الخمر ومجالسة الجوارح، والإغراق في مجالس اللهو والمجون؛ حتى طغت تلك الصورة الظالمة على ما عُرف عنه من شدة تقواه وحرصه على الجهاد والحج عامًا بعد عام، وأنه كان يحج ماشيًا ويصلي في كل يوم مائة ركعة، وفي أواخر سنة (192 هـ - 808م) خرج الرشيد لحرب "رافع بن الليث"، واستخلف على بغداد ابنه الأمين، وفي الطريق مرض الرشيد، وما لبث أن اشتد عليه المرض، وفاضت روحه في (3 من جمادى الآخرة 193م - 24 من مارس 809م)، فتولى الخلافة من بعده ابنه "محمد الأمين".

سياسته الرشيد الخارجية :

الإمبراطورية البيزنطية :

كانت علاقة الرشيد بالإمبراطورية البيزنطية علاقة حرب وعداء كما كانت على عهد أبيه وجده، ولقد واصل هارون الرشيد استكمال تحصينات ثغوره المتاخمة للدولة البيزنطية، وأقام منطقة جديدة بين شمال الجزيرة وشمال بلاد الشام، أطلق عليها اسم منطقة العواصم، وجعل قاعدتها مدينة منبج في شمال شرق حلب، ورتب فيها جيشًا دائمًا، كذلك اهتم بمنطقة الثغور الشامية التي على الحدود بين آسيا الصغرى وسوريا؛ فعمّر فيها طرسوس وأضنة وعين زربة (نورزا)، كما أقام فيها حصونًا جديدة، مثل حصن الهارونية بين مرعش وعين زربة، اهتم الرشيد بمناطق الثغور وولى عليها ابنه الثالث أبا القاسم الملقب بالمؤتمن، كذلك اهتم الرشيد بتقوية الجيش العباسي حتى صار من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت، ثم وجه الحملات المتكررة على المواقع البيزنطية في آسيا الصغرى.

كانت شهرة هارون الرشيد قبل الخلافة تعود إلى حروبه ضد الروم، فلما ولي الخلافة استمرت الحروب بينهما، وأصبحت تقوم كل عام تقريبًا. واضطرت دولة الروم أمام ضربات الرشيد المتلاحقة إلى طلب الهدنة والمصالحة، فعقدت إيريني ملكة الروم صلحًا مع الرشيد، مقابل دفع الجزية السنوية له في سنة 181 هـ، وظلت المعاهدة سارية حتى تقضها إمبراطور الروم نقفور الأول، الذي خلف إيريني في سنة 186 هـ، وكتب إلى هارون: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ (القلعة في الشطرنج)، وأقامت نفسها مقام البَيْدق (الجندي في الشطرنج)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحققهن، فإذا قرأت كتابي فارد ما حصل قبلك من أموالها، وأفتد نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

فلما قرأ هارون هذه الرسالة غضب غضبًا شديدًا ورد عليها برسالة مماثلة قال فيها: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام". خرج هارون الرشيد على رأس جيش كبير بلغ تعداده 135 ألفًا، سوى الأتباع والمطوعة وتوغل في آسيا الصغرى حتى وصل هرقله عاصمة كورة بيتينيا فحاصرها واستولى عليها عنوة سنة 806 م، وأعقب ذلك توجيه حملات متلاحقة بقيادة كبار قواده، أمثال داود بن عيسى وشراجيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد، هزمت جيوش البيزنطيين ودمرت حصونهم، واضطر الإمبراطور نقفور أن يتناسى خطابه ويعترف بهزيمته ويتعهد بدفع الجزية من جديد وفي ذلك يقول الطبري: "وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطانته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه استبراق (هوستوراكوس) بدينارين كما تعهد بأن لا يعيد ترميم الحصون التي دمرها الرشيد". ويبدو أن الضربات التي وجهها الرشيد إلى الدولة البيزنطية كانت عنيفة وحاسمة، بدليل أنها لم تحاول الاستفادة بعد ذلك من الفتنة التي دبت بين الأمين والمأمون في استعادة ما فقدته في عهد الرشيد.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

اشتهرت شخصية الرشيد في أوروبا نتيجة لعلاقته الودية مع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان (768 - 814 م)، بودلت بينهما السفارات، والبعثات الدبلوماسية المتنوعة كما وردت في الحوليات الملكية الكارولنجية " Carolingian

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

"Royal Annales" في المدة التي بين 797 - 806 م، أرسل شارلمان ثلاث سفارات مختلفة إلى البلاط العباسي في بغداد وفي المقابل أرسل الرشيد بعثتان تجاريتان على الأقل إلى أوروبا، ففي عام 801 م وصلت أولى البعثات العباسية إلى بيزا بشمال إيطاليا تتبعها سفارة ثانية إلى آخن بألمانيا ولا شك أن المصالح السياسية كانت وراء هذا التفاهم الودي بين الملكين، فقد أراد شارلمان من وراء هذا الحلف أن يضعف من نفوذ إمبراطور الدولة البيزنطية، واستغل الرشيد هذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس على السواء. كانت تلك البعثات المتبادلة بين الملكين مرفقة عادة بالهدايا الوفرة وقد اختار شارلمان المنتجات القيمة من أقمشة ملكية فاخرة وأرسلها مع سفرائه إلى الرشيد، أراد شارلمان توسيع صادرات الأقمشة من فرنسا إلى أراضي الدولة العباسية، وبالتالي تعزيز التجارة في مملكته، ورد عليها الرشيد بأن أرسل إلى شارلمان عطوراً وأقمشة وفياً ولوحة شطرنج وساعة مائية، كما عرض عليه الخليفة أن يكون حامياً للأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس.

ساعة الرشيد وشارلمان :

يذكر أن الساعة المائية التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان، مصنوعة من النحاس الأصفر بارتفاع نحو أربعة أمتار وتتحرك بواسطة قوة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد من الكرات المعدنية يتبع بعضها البعض الآخر بحسب عدد الساعات فوق قاعدة نحاسية؛ فتحدث رنيناً جميلاً في أنحاء القصر الإمبراطوري، كانت الساعة مصممة بحيث يفتح باب من الأبواب الإثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة، ويخرج منه فارس يدور حول الساعة ثم يعود إلى المكان الذي خرج منه، وعندما تحين الساعة الثانية عشر يخرج اثنا عشر فارساً مرة واحدة، يدورون دورة كاملة ثم يعودون من حيث أتوا، وتغلق الأبواب خلفهم، أثارت الساعة دهشة الملك وحاشيته، واعتقد الرهبان أن في داخل الساعة شيطان يسكنها ويحركها، وجاؤوا إلى الساعة أثناء الليل، وأحضروا معهم فؤوساً وحطموها إلا أنهم لم يجدوا بداخلها شيئاً سوى آلاتها، وقد حزن الملك شارلمان حزناً بالغاً، واستدعى حشداً من العلماء والصناع المهرة لمحاولة إصلاح الساعة وإعادة تشغيلها، لكن المحاولة فشلت، فعرض عليه بعض مستشاريه أن يخاطب الخليفة هارون الرشيد ليعث فريفاً عربياً لإصلاحها، فقال شارلمان "إنني أشعر بخجل شديد أن يعرف ملك بغداد أننا ارتكبنا عاراً باسم فرنسا كلها".

غير أن السفارات المتبادلة بين الرشيد وشارلمان قد ذكرت في المصادر الأوروبية فقط، ويرجع بعض المؤرخين الأوروبيين أمثال بارتولد وبروكلمان أن بعض التجار العرب الذين ذهبوا إلى مدينة إكس لاشابيل (آخن) قاعدة شارلمان، انتحلوا صفة السفراء الناطقين باسم الرشيد لدى شارلمان من غير تفويض، ولهذا لم يرد ذكرهم في المراجع العربية، وكان اعتماد الجانبين في أداء هذه المهام الدبلوماسية على العلماء والفقهاء في أغلب الأحيان.

المغرب والأندلس :

أما عن سياسة الرشيد نحو المغرب والأندلس، فكانت تقوم على سياسة الاعتراف بالأمر الواقع في تلك البلاد وعدم الخوض في مغامرات غير مأمونة العواقب كما فعل أبوه المهدي وجده المنصور، ولهذا، اكتفى بمحالفة جاره القوي شارلمان، كما أقام في أفريقية دولة مستقلة في نطاق التبعية للخلافة العباسية وهي دولة الأغالبة، التي كانت بمثابة ثغر عباسي أو دولة حاجزة لحماية أطرافه الغربية من أخطار الخوارج، والأدارسة، والأمويين، فضلاً عن البيزنطيين، ولم يلبث إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الدولة أن شرع في بناء مدينة جديدة على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان سماها العباسية، وجعلها قاعدة لإمارته سنة 800 م - 183 هـ.

اهتمامه بالعلماء والأدباء :

كان الرشيد مثقفاً ثقافة عربية واسعة وكان يملك أدباً رفيعاً وتذوقاً للشعر، لذلك قيل: كان فهم الرشيد فهم العلماء. وكانت مجالسه تملأ الشعراء والعلماء والفقهاء والأطباء والموسيقيين، وكان كثيراً ما يناقش العلماء والأدباء، كذلك كان ينقد الشعر والشعراء. كان يقول: "البلاغة، التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل على المعنى"، قال عنه الذهبي: "وكان يحب العلماء، ويعظم حرمان الدين، ويغض الجدل والكلام، ويكي على نفسه ولهوه وذنوبه لا سيما إذا وعظ" ويقول الخطيب البغدادي: "وكان يحب الفقه والفقهاء، ويميل إلى العلماء"، ومن أشهر الأدباء الذين عاصروا الرشيد وحضروا مجالسه الشاعر أبو العتاهية وأبو سعيد الأصبغي. ومن علماء الدين الذين عاشوا في عصره الإمام الشافعي صاحب المذهب الشافعي

العصر الذهبي للخلافة العباسية خلافة هارون الرشيد

والإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي في الفقه الذي التقى بالرشيد حين قصد الخليفة منزله بالمدينة المنورة وقرأ عليه الإمام كتاب الموطأ وعلى الصعيد العلمي، دعم الرشيد عالم الكيمياء المشهور جابر بن حيان وأسس وتلامذته منهج التجربة في العلوم.

كان العلماء يبادلونه التقدير، روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: (ما من نفس تموت أشد علي موتاً من أمير المؤمنين هارون، ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره)، فقال في ذلك أحد أصحاب الفضيل: (فكبر ذلك علينا فلما مات هارون الرشيد وظهرت الفتن، وكان من ذلك في عهد المأمون عندما حمل الناس على القول بخلق القرآن قلنا الشيخ كان أعلم بما تكلم).

وفاته:

كان الرشيد رغم كل هذه الأعمال التي قام بها يشعر في قرارة نفسه بقلّة الحيلة أمام المنافسات والتيارات الخفية في داخل مملكته، وأن نكبة البرامكة لم تكن حلاً للموقف، فهناك ولداه الأمين والمأمون يضمران النقمة لبعضهما البعض، ومن ورائهما حزبا العرب والعجم ينتظران خاتمة الرشيد ليستأنفا نضالهما من جديد، لذلك كان الرشيد في أواخر أيامه وحيداً حزيناً يخفي علته عن الناس، إذ يؤثر عنه أنه كشف عن بطنه لأحد أصدقائه فاذا عليها عصابة من حرير ثم قال له: "هذه علة اكتمها عن الناس كلهم وكل واحد من ولدي علي رقيب، وما منهم أحد إلا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري" واشتدت العلة بالرشيد وهو في طريقه إلى خراسان للقضاء على ثورة رافع ابن الليث وتوفي بمدينة طوس (مشهد الحالية في شمال شرق إيران) ودفن بها في جمادى الآخر في سنة 193 هـ / 809م)